الثقافة العربية ومرآة الغرب: الإشكاليات ومعابر التغيير(*)

غسان سلامة

وزير الثقافة ـ لبنان.

أيها الأخوة

إني لا أعتقد أن التواصل والتفاعل بين الثقافات قائم على مبدأ المرآة. فالمرآة أمر ساكن، بل شيء يعيد إنتاج الصورة كما هي، عندما تكون المرآة صادقة، لكن المرآة تعني ان هناك طرفاً حياً وطرفاً ساكناً، وأنا لا أعتقد أن التواصل بين الثقافات يقوم على مبدأ الترائي إنما يقوم على مبدأ التواصل والتفاعل، وبالتالي فإني لا أعتقد أيضاً على الإطلاق بأن الحضارات أو الثقافات هي في حالة صراع، وفي حقيقة الأمر لا أعتقد انها في حالة حوار أو يمكن لها أن تكون في حالة حوار. أنا من الذين يعتقدون أن الحضارات لا تتصارع ولا تتحاور لسبب بسيط وهو لأنها ليست موجودة، ليست موجودة كفاعل في الساحة الدولية. ليس هناك من يمثل شيئاً اسمه الحضارة، الحضارة مخزون من القيم والأفكار واللغات والعادات والتقاليد نعود إليها لنبحث في ذاتنا ولتكون ذاتنا من خلال ذلك المخزون، ولكن المخزون ليس فاعلاً في الساحة الدولية كي يتحاور مع غيره أو كي يتصارع. وبالتالي، فإني أنتمي إلى مجال هو الحضارة العربية، إلى خزان أستقي منه أفكاري ومواقفي ومعتقداتي وأفكاري وقيمي، ولكن لا أعتبر أن تلك الحضارة هي في ذاتها فاعل دولي قائم بذاته لكي يتحاور أو لكي يتصارع مع غيره من الحضارات.

ثم إني، في واقع الأمر، ولأسباب كثيرة مرد بعضها إلى كوني عشت فيه فترة طويلة من الزمن أشك بوجود الغرب. أعتقد أن الغرب مشروع سياسي مكون حول فكرة هيمنة سياسية واستراتيجية لطرق معينة، يحاول بعد الحرب العالمية الثانية أن يستقطب جزءاً من غرب أوروبا وبعد انتهاء الحرب الباردة جزءاً من شرقها أيضاً،

(*) الكلمة التي ألقاها د. غسان سلامة، وزير الثقافة، في افتتاح الندوة المشتركة التي نظمتها اللجنة الوطنية اللبنانية للتربية والعلم والثقافة (اليونيسكو) بالتعاون مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألكسو) حول «الثقافة العربية ومرآة الغرب: الإشكاليات ومعابر التغيير» في بيروت خلال الفترة ٢٢ ـ ٢٣ آذار/مارس ٢٠٠٢.

ويحاول أن يحول حلف الأطلسي إلى إطار استراتيجي وسياسي يكون تجسيداً عسكرياً واستراتيجياً واقتصادياً لتلك الكلمة التي اسمها الغرب.

في الناحية الثقافية والحضارية إني أشك بوجود الغرب. إنني أرى أغراباً، إني أرى داخل ما يسمى الغرب ثقافات ومصالح ولغات مختلفة ملتقية أحياناً ومبتعدة حيناً آخر.

وأعتقد بالذات اننا نخدم خصومنا الأشد، عندما نقوم بدورنا باستعمال تعبير الغرب دون أي روح نقدية، فنحن عندما نقول مبدئياً ومفهومياً بتوحد الغرب في المصلحة والرؤية والممارسة، فإننا نخدم حالياً مصلحة هيمنة طرف معين على كل ما نسميه الغرب.

لذلك أنا أدعوكم في المجال الثقافي والحضاري إلى أن تروا أن كلمة الغرب واقع مشكوك فيه، إنما هو مشروع سياسي استراتيجي يلقى ممانعة في مواقع عديدة مما نسميه اعتباطاً «الغرب».

تبقى الفكرة العربية مراراً وتكراراً انني أرى فيها أحد أهم اختراعات العرب في القرن العشرين. انها فكرة حديثة بامتياز. هناك من يرى في هذا القول نوعاً من التجني على التأصيل التقليدي والتاريخي والأثري للفكرة العربية، ولكني لا أعتقد ذلك، أعتقد أن لقاء العرب بالحداثة في القرن العشرين لم يعبر عنه شيء أفضل من الفكرة العروبية، **فالفكرة العروبية هي بنت الزواج الشرعي بين العرب والحداثة، ولذلك انتميت إليها باكراً ولن أتخلى عنها يوماً**، فإني أرى فيها زواجاً ناجحاً ولو التهمت أجواءه السياسة، ولو حاولت غير فئة في النصف الثاني من القرن العشرين أن تحول هذه الفكرة المبدعة الرائعة إلى مشاريع سياسية أقل ما يقال فيها بأنه يصعب على أن إنسان عاقل أن ينتمي إليها نقدياً.

لكن استقطاع الفكرة العربية من قبل الحركات السياسية، وبالتالي إخفاق معظم تلك الحركات السياسية لا يلغي شيئاً لا من أحقيتها ولا من حداثتها. وهذا ما أعتقده وآمله في أن معاً من مستقبلها. بل إني أرى أنه بعد الموجات التي ضربت تلك الفكرة العربية، ولا سيما بعد هزيمة ١٩٦٧، أن لها مستقبلاً إذا شئنا لها ذلك المستقبل، أرى انها قد تخرج منتصرة من تكالب القوى المعادية التي حاولت أن تقضي عليها. ويقيني **أولاً** أن لها حظاً في أن تتزاوج في المقبل من الزمن أفضل من السابق مع الفكرة الديمقراطية، إذ انها تأذت إلى أقصى الحدود من زواجها بالإكراه مع أشنع أفكار التسلط، فإن هي اعتنقت الديمقراطية وتوازت معها، والتصقت بها، فقد يكون مستقبلها أفضل، ويقيني **ثانياً** انها الحاضنة الوحيدة لشعور الكيانات الهزيلة بضعفها.

عندما نرى في العالم تلك الآثار الخطيرة للعولمة، أقول خطيرة بمعنى عظيمة وليس بالضرورة بمعنى خطيرة، ما نراه من آثار العولمة هي أنها تدفع في المجال الاقتصادي والمالي إلى مزيد من الاندماج الإقليمي، وتدفع في المجال السياسي والثقافي إلى مزيد من التفكك والتشرذم، لذلك فآثار العولمة في المجتمعات النامية بصورة خاصة ليست أحادية إنما متناقضة، ولكن في كلا الحالتين، أي في آثارها الاندماجية كما في آثارها الشرذمية، فإن العولمة على عكس ما يعتقد العروبيون التقليديون ليست عقبة أمام الفكرة العربية بل

قد تكون حظاً لها، ذلك ان العولمة تدفع إلى مزيد من الاندماج الاقتصادي والمالي كما رأينا في أوروبا وآسيا وغيرها. ونحن في وطننا العربي لدينا المؤسسات والفكرة والأحلام والإمكانيات لكي نحقق ذلك الاندماج الإقليمي في المجال الاقتصادي والمالي والإنمائي الذي تدفع العولمة نحوه. **ولكن الفكرة العربية أيضاً قد تشكل الملاذ والملجأ للآثار المدمرة للعولمة في الثقافة والسياسة، بمعنى أنها قد تشكل إن تمكن أصحابها من ذلك ملاذاً، ملجأ، حاضناً، لإعادة بناء الذات القومية في مواجهة آثار العولمة في الثقافة والسياسة.**

ويقيني **ثالثاً** أن في الأفق مرحلة جديدة من علاقة الفكرة العربية بالدين، لقد مرت الفكرة العربية في مرحلتين متناقضتين في علاقتها بالدين وبالتديّن. ففي مرحلة أولى، جنح جلّ أصحابها للاعتقاد بأن فكرتهم قد تشكل بديلاً من الدين، فرأينا تعابير الدين تنسحب بطريقة لاشعورية على مفردات الفكرة العربية. فإن نظرنا إلى الجماعة العربية رأينا اسمها أمة، وان رأينا أطرافاً حزبية تخرج من حزب قومي سُمّوا بالخوارج، وان رأينا طرفاً يخرج في بعض الأنظمة من الحزب، يُحكم عليه بالإعدام باسم الردّة. لقد رأينا في مرحلة أولى الفكرة العربية تجنح بمواجهة مع الدين، بل لمطمح خفي طموح بأن تحل مكانه.

وفي مرحلة ثانية، رأينا الفكرة العربية تنقاد أمام التيارات الدينية، فتشعر تجاهها بالخجل وبالوهم وبالضعف وبالتبعية، وكأن الحركات الدينية أثبتت أنها قادرة على النجاح والتفوق بالذات حيث فشلت الفكرة العربية، أي في مواجهة العدو الإسرائيلي وفي إعادة بناء الذات الوطنية.

لكن حدسي، إن لم يكن يقيني، اننا على عتبة مرحلة ثالثة لا تتوهم فيها الفكرة العربية بأنها قادرة على الحلول مكان الدين ولا تسعى لذلك ولا تأخذ من الدين مفرداته، ولا تأخذ من الدين طقوسه، ولا تأخذ من الدين منطقه وذهنيته وآلياته، ولا في مرحلة ثانية تنقاد أمام التيارات الدينية وتستتبع من قبلها، فتضمحل وتتلاشى معها الفكرة العربية..

حدسي إن لم يكن يقيني اننا أمام مرحلة ثالثة مختلفة عن الأولى والثانية، فيها إمكانية التلاقي، ليس بين تيارين متنافسين، بل بين عقيدتين تتوجهان إلى موقعين مختلفين في الشخصية الفردية والجماعية، إلى موقعين مختلفين، فيحتل الدين موقعاً، وتحتل الفكرة العربية موقعاً، ولا تعتقدنّ إحداهما بأن بإمكانها إلغاء الأخرى أو استتباعها. أعتقد أن هذه المرحلة آتية، وهذا موجز ما لديّ اليوم لكم □